في المقهى

اللغط والضجيج والصخب وسحائب الدخان وفرقعة النرد وما قد يتخلله من سباب وشتائم أو أيمان مغلظة هي الإيقاعات المحببة مساء يوم الجمعة، نحس بالفراغ، نشتاق إلى صخب المعمل وضجيجه، يشتاق بعضنا إلى بعضنا الآخر، مع أننا لا نكاد نبلغ نهاية الأسبوع حتى نضجر ونمل، ونود لو جاء يوم العطلة، وها هو ذا يجيء، وسرعان ما نلجأ إلى مقهى العمال ليلتقي فيه بعضنا ببعض.

هنا لا ندفع سوى خمس ليرات، سواء للقهوة أو الشاي أو الزهورات أو الكازوز، حتى النارجيلة طالبنا أن تكون بخمس ليرات، ثم رضينا أن تكون بعشرين، ونحن هنا نأتي متى نشاء ونخرج متى نشاء، لا عمل ولا مدير ولا رئيس وردية ولا مراقب.

صوت النادل عبدو وحده المميز في ذلك الإيقاع، وهو ينادي: نارة، واحد زهورات، ثلاثة شاي سكر وسط، أربعة قهوة سادة. صوته هو الذي يضبط الإيقاع، يعلو فوقه، يضيع وسطه، يندغم فيه، نحس له ببهجة لا نعرف سرها،

أحياناً يتسرب إلى الإيقاع صوت بائع الصحف أو الجوارب أو أوراق النصيب، أو صوت متسولة عجوز.

هنا ننسى كل شيء. البيت والزوجة والأولاد. هنا نجد أنفسنا، هنا ننسى أنفسنا.

ألتفت أرى صورتنا أنا وأصحابي منعكسة على الزجاج وقد غطاه غبش الأنفاس، أرى المقهى كله، أرى سحائب الدخان، وفي الخارج يسقط المطر رذاذاً، وأناس على الرصيف يروحون ويجيئون، وعلى الطرف الآخر مكتب المراسلات، آلاف الطرود والرسائل تروح وتجيء كل يوم، هذا يرسل إلى ذاك وذاك يرسل إلى هذا، حركة دائبة تدور.

طوال حياتي لم أرسل طرداً إلى أحد، طوال حياتي لم يرسل إليَ أحد أي طرد.

أنظر في وجوه أصحابي، ألتفت إلى عبدو النادل وهو يحمل كؤوس الشاي، تمتد عيناي إلى طاولة صاحب المقهى، هو متعهد المقهى، وليس صاحبه، ولكنه يقعد وراء مكتبه كالأمير، نارجيلة كالعروس تنتصب إلى جواره، مذهبة، مزينة، الجمرات في رأسها تتقد، وراءه حوض أسماك، وناعورة صغيرة في داخل الحوض تدور، أسماك حمراء

وسوداء، أسماك كبيرة وصغيرة، والماء يبدو كالعكر، أحس بمزاجي قد تعكر، لا أعرف لماذا؟.

ويفتح الباب ويدخل.

عجوز متهدم، ناحل جداً، شاحب جداً، يتأبط جريدة، محنيَّ الظهر جداً، يكاد يتقوس، كأنه خارج من قبر، حقيقة هو خارج من قبر، فقد سمعنا منذ عام أنه مات، كم هو دميم؟يا إلهي، كيف صار إلى هذه الحالة؟ يرمي فضاء المقهى بنظرة فيها شيء من اشمئزاز قديم، يتريث قليلاً أمام الباب، ثم يدخل واهن العزم، كليل الخطا، يميل كأنه يعرج على يسراه، على الفور يتجه نحونا، لماذا اختارنا نحن بالذات؟.

نظرت إلى هشام، لا شك أنه سيطرده، لن يسمح له بالجلوس إلى مائدتنا، أكرم سينهض على الفور، سيغادر المقهى، ميشيل سوف يطلب منه الجلوس إلى طاولة أخرى، محمود سيوليه ظهره إذا ما قعد إلى جواره، وقد يلكزه بكتفه ليقع على الأرض، أنا سأنفث دخان سيكارتي تجاهه ليختنق، سنتفق جميعاً ونطلب من النقابة عدم السماح له بارتياد مقهى العمال، ما الذي جاء به إلى مقهانا؟

قلت لهم مستنكراً ومحرِّضاً:

ـ هذا مقهى العمال، وليس مقهى المدير العام.

وجاءتني الأصوات تهدِّئني وتقنعني:

ـ هو الآن مجرد إنسان، وليس المدير العام

ـ لا نستطيع منعه، هو في الأصل عامل ويحمل بطاقة العضوية، ومن حقه ارتياد مقهى العمال

ـ لا يمكن أن نطلب منه القعود وحده إلى طاولة

ـ حقيقة هو آذانا جميعاً، يوم كان المدير، ولكنه اليوم إنسان

ـ عفا الله عما مضى

ـ المسامح كريم

ـ هو اليوم بحاجة إلينا

ـ يجب أن نرحم شيخوخته

ونهضنا جميعاً، رحبنا به، حييناه، أفردنا له مكاناً بيننا، خصصناه بموقع مميز، أطفأنا جميعاً سجائرنا، نعرفه لا يحب التدخين، قدمنا له كأس زهورات، تبارى كل واحد منا في دفع الثمن، ولكن متعهد المقهى تقدم منا، رحب به، ثم قال:

ـ مشروب هذه الطاولةكله هذه الليلة ضيافة مني، على شرف المدير، حلت علينا البركة بحضوره، أهلاً وسهلاً به، وبكم، كل يوم جمعة ستكون هذه الطاولة محجوزة له، ولمن يحب.

يخيم الصمت، أرفع كأس الشاي، أرى خلال الشاي الكثيف المدير العام، أرى الصحب، أرى المقهى كله، كأنه حوض أسماك، آخذ رشفة، أبتلعها، أكاد أختنق، أسعل، أقحّ، ويتطاير الشاي من فمي رذاذاً.

ويتكلم المدير العام بصوته الهادئ كأنه خارج من قبر:

- إذا تكررت هذه الغصة فهي دليل مرض في القلب، عليك مراجعة طبيب مختص، ولا بد من التصوير والتخطيط والتحليل، الحق نفسك اليوم قبل الغد، ابن أخي شاب عمره أقل من ثلاثين سنة، كان يغص دائماً، أخي أميٌّ وجاهل، ما تدارك ابنه، فجأة مات، أنا أجري الفحوص والتحاليل وصور الأشعة كل ثلاثة أشهر، أنا..

ويقترب منا غلام رث الثياب يمد إلينا يده بأوراق النصيب، لا أعرف لماذا يبدأ بي، أنهره، أكاد أضربه، لا أعرف لماذا، يتسلل إليَّ صوت المدير العام هادئاً:

- اشتر منه ورقة نصيب، جرب حظك، لعلها تكون على قدومي الرابحة؟.

أنظر إلى وجهه، يبتسم لي، أسنانه بيضاء جداً، منضدة بأناقة، هي أسنان صناعية من غير شك، يبتسم، كأن جمجمة في هيكل عظمي تبتسم لي.

أقول له:

ـ نحن العمال لا نقامر على حظنا، نحن نصنع حظنا بأنفسنا.

يبتسم أيضاً، يتمتم من بين أسنانه البيضاء المنضدة بأناقة، يقول شيئاً، ولكن لا أعرف ماذا يقول.

أرمي ميشيل بنظرة، فهو أكبرنا، ثم أنظر خلسة إلى ساعة يدي، وأعطيه إشارة ما، وأسمع المدير يعلق، وأسنانه البيضاء تأتلق مثل سيف مصلت:

ـ لا تنظر في ساعة يدك، الآن أنا وصلت، جلستكم لا تمل، كل أسبوع ستكون لنا جلسة هنا حول هذه الطاولة بالذات، ولكي يكتمل الأنس فلا يفكر أحد بالذهاب قبل أن أنهض أنا.

هكذا يتكلم، ثم يضحك.